الفصل الثامن

فوكوياما ينتهى.. والتاريخ مستمر!

بعد إعلان (نهاية التاريخ) عام ١٩٨٩.. اعترف فرانسيس فوكوياما - الأمريكى الجنسية.. اليابانى الجذور - بخطأ تلك النظرية.. قائلاً: «نحن لم نصل بعد إلى نهاية التاريخ.. لأننا لم نصل إلى نهاية العلم».. وتوقع فوكوياما أن سيطرة البشرية على تطورها الذاتى - من خلال التكنولوجيا البيولوجية - سوف يكون له تأثير رهيب على الديمقراطية الليبرالية التى تفترض أن كل البشر متساوون!

وفى كتاب آخر.. هو (التمزق العظيم) يعرض فوكوياما لتمزق الحضارة الغربية من ثلاث زوايا: ارتفاع معدلات الجريمة.. وانهيار العائلة.. وانعدام الثقة فى مؤسسات المجتمع. بمعنى أن المجتمعات الغربية قد تبدو منتصرة ومتفوقة (ظاهريًا) فقط.. ولكنها ممزقة فى أسسها ونظامها الأخلاقى.

وقد كتب فرانسيس فوكوياما مقالاً بعنوان بغيض.. نذكره من باب العلم فقط - ألا وهو (هل يمكن لأى إله أن يأتى بإسلام

راديكالى).. وشاركه فى كتابة هذا المقال (نادات سامين).. وهما يتفقان (على أن الحالة الإسلامية أو الاتجاه الإسلامى هو قوة مدمرة تستحق مقارنتها بالشيوعية والفاشية.. ومع ذلك فإنه يمكن تحديثه.. أو انتزاع القيود التقليدية التى تمنع المسلمين من التحديث. وإذا تم انتزاع الاتجاه الإسلامى أو الحالة الإسلامية من أيديولوجيتها فإنها قد تصبح نعمة أو اتجاها مقبولاً.. ولكنه يحظى بغطاء متخلف)!!

ولم يكن فوكوياما هو المفكر الغربى الوحيد الذى يتهم الإسلام بالتخلف وعدم الحداثة.. فقد سبقه كثيرون.. باحثون ومستشرقون وفلاسفة من أبرزهم هيجل الذى كتب أوائل القرن التاسع عشر: لقد اختفى الإسلام من على منصة التاريخ وارتد إلى السهول الشرقية وإلى الراحة الأبدية)..!! هذه أمانيهم وأحلامهم.. ومخططاتهم. فالإسلام يزداد انتشارًا فى جميع أنحاء العالم وهو العقيدة الثانية فى كوكبنا. وهذا الفكر الذى يدعى فوكوياما (أنه قوة مدمرة) لم يقم بحملات استعمارية كبرى شملت كافة القارات. ولم يقم الإسلام بإبادة الشعوب.. ولم يستنزف ثروات الأمم.. كما تفعل الحضارة الغربية على مدى قرون.. وحتى يومنا هذا.. وغدنا أيضًا.

ويطالب فوكوياما بنزع الأيديولوجية عن الاتجاه الإسلامى وأن تحظى بغطاء خارجى مزيف.. أى أن يتم إعادة صياغة الإسلام بعد انتزاع جوهره.. بما يتوافق مع المشاريع والمخططات الكبرى التى بدءوا تنفيذها فعلاً.. وآخرها (الشرق الأوسط الكبير).

وهذه الخطيئة التى يرتكبها فوكوياما فى حق الإسلام.. هى ذاتها التى يرتكبها الغرب فى مواجهته له. فما زال الإسلام قوة مؤثرة فى مسار الأحداث والأمم.. بل إنه قوة دافعة لشعوب الأمة الإسلامية على رغم حالات التخلف والفقر والضعف التى تعتريه لأسباب عديدة.. من بينها الغرب ذاته.. بل إن عظمة الإسلام - كما علق مارتن كرام على مقال فوكوياما - : (تكمن فى قدرته على التكيف الذاتى مع كل الظروف المتغيرة. وكلما بدا أنه متخلف عن العصر.. أو توقع كثير من المحللين الغربيين نهايته.. ظهر فجأة بشكل جديد تماما).

ولعل رؤية فوكوياما العنصرية والمتحيزة ضد الإسلام والمجتمعات الإسلامية ترتبط بمشكلة نظريته الشهيرة التى أعلنها فى مقال عام ١٩٨٩.. ثم فى كتاب عام ١٩٩٢.. يحمل اسم (نهاية التاريخ والرجل الأخير).. وفيه يرى فوكوياما أن العالم يتجه بشكل جارف نحو الديمقراطية الليبرالية. وبافتراض اتجاه

العالم الإسلامى نحو التحديث مستقبلاً يتفق فوكوياما مع أحد كبار منتقديه (صامويل هنتجنتون) الذى يعتقد بأن نهاية الحرب العالمية الباردة سوف تؤدى إلى (صدام الحضارات) على أساس عقائدى وثقافى. ويبدو أن الإدارة الأمريكية الحالية تستخدم تلك النظرية عند محاربتها لكل العقائد والأيديولوجيات المضادة للغرب. لذا يقول فوكوياما: «بينما يبدو الاتجاه الإسلامى وسيلة شديدة الفعالية فى الحشد السياسى.. فإنه يمثل كارثة أيديولوجية تحكم وتسيطر على بعض الدول».

وربما لم يكتب فوكوياما مؤلفاً آخر بحجم وتأثير كتابه (نهاية التاريخ) الذى أثار ضجة كبرى عند نشره. ولكنه قدم كتاباً جديداً بعنوان (مستقبلنا بعد المرحلة البشرية) أو بمعنى آخر.. نهاية الطبيعة البشرية وآثار ثورة التكنولوجيا الحيوية. فهذا الكتاب أحدث ضجة أخرى. وفيه يعترف فوكوياما بخطأ نظريته حول نهاية التاريخ.. فكيف يكون للتاريخ نهاية.. بينما يتطور العلم؟!

ويعرض المؤلف الأمريكى - ذو الجذور اليابانية - اقتراحاً لإنشاء آلية سياسية دولية للسيطرة على أبحاث التكنولوجيا الحيوية. بمعنى أنه يطالب العالم بفرض مزيد من النظم والقيود على تلك الأبحاث. ويبدو أنها نظرية (شمولية) جديدة

يحاول فوكوياما أن يلبسها ثوب العلم والتكنولوجيا! وربما تدفعه احتمالات عدم تنظيم أبحاث التكنولوجيا الحيوية على البشر إلى المطالبة بالاتفاق على حظر الاستنساخ البشرى على سبيل المثال!

ويقول فوكوياما: (قد تصبح التكنولوجيا الحيوية خطأ سياسيًا فاصلاً ومهماً فى عالم السياسة فى المستقبل.. والحصول على توافق دولى للسيطرة على أبحاث التكنولوجيا الحيوية فى المجال الطبى لن يتم دون بذل جهد كبير من المجتمع الدولى.. خاصة من الدول القائدة فيه. ولا يمكن خلق هذا التوافق بمجرد إطلاق رصاصة سحرية.. بل يجب استخدام أدوات الدبلوماسية التقليدية لتحقيق هذا الهدف).

ويواصل فوكوياما عرض أفكاره المثيرة حول مرحلة نهاية الطبيعة البشرية قائلاً: «بينما نعرف المزيد حول كيفية تفاعل الجينات فى تشكيل سلوك البشر.. فإن هناك مبررا قويا للعودة إلى الفلسفات البشرية الأولى والمبكرة.. الإغريقية على سبيل المثال.. التى تستند إلى الطبيعة كأساس للحصول على الحقوق السياسية. مع العلم بأن الفلسفات الأحدث أضافت المزيد من التجربة. وبينما نلاحظ تقدم التكنولوجيا بسرعة مذهلة.. وتزايد معدل عمر الإنسان وتقلص أعداد المواليد الجدد.. فإن

هذا يؤدى إلى خلق عالم أكبر من متوسط الأعمار حيث تتعايش أجيال عديدة فى مكان العمل.. بدلاً من إفساح المجال لأجيال أخرى.. وقد ينتج عن ذلك ما يمكن أن نطلق عليه حروب العمر.. على غرار الحروب الجينية!! وفى المستقبل القريب سوف يتمكن الآباء الأغنياء من اختيار بويضات مخصبة ذات سمات متفوقة تحظى بالذكاء.. والقدرات الرياضية الرفيعة.. والمظهر الجميل.. بمعنى نشوء ما يمكن أن نسميه (عرق سوبر). ولكن هذه التكنولوجيا الحيوية سوف تكون لها مخاطر أبرزها تهديد أسس الإدراك المعنوى والأخلاقى للبشر.. تلك الأسس التى ستبقى وستظل قائمة.. ما دام قد بقى البشر».

وحول كيفية تفاعل وتشكيل الثقافات فى ظل تصاعد الاندماج الاقتصادى العالمى.. يرفض فوكوياما الرأى القائل بأن العولمة سوف تؤدى إلى التماثل الثقافى، مشيرًا إلى أن المجتمعات ما زالت تحتفظ بسماتها وخصائصها المتميزة.. على رغم الضغوط الثقافية الخارجية. بل إن تلك القيم الثقافية ما زالت تصوغ أسلوب إدارة الأنشطة والأعمال داخل كل دولة. وهذا لا يعنى أن المجتمع لا يتأثر أو يتغير بعملية العولمة.. بل إن هناك نوعًا من الالتقاء بين الأيديولوجيا السياسية والاقتصادية. ومع ذلك فإن هناك عوامل ثقافية أعمق لا يمكن التخلى عنها بسهولة.

ويضيف فوكوياما: أعتقد أن هناك ثقافة استهلاكية عالمية نشرتها شركات عالمية شهيرة متعددة الجنسيات. وإذا تعمقت فى المجتمعات وسألت الناس فى بلاد مختلفة عن: ولاءاتهم - ورؤيتهم لعائلاتهم.. ونظرتهم إلى السلطة.. فسوف تكتشف اختلافات هائلة. وعندما يحاول البعض فحص ثقافة معينة.. فإنهم يهتمون كثيرًا بجوانب وأمور مثل أنواع السلع الاستهلاكية التى يشترونها.. وهذه أكثر مظاهر الثقافة سطحية.. فالثقافة تشمل نواميس وأسسًا أخلاقية أعمق تؤثر فى مدى ترابط الناس. وفى كتابى (الثقة: السمات الاجتماعية وبناء الرخاء).. أتناول فكرة جوهرية تقول: إن السمات الأعمق - أو النواميس الأخلاقية - تصوغ وتحدد طبيعة النشاط الاقتصادى وتؤثر فيه. وعلى سبيل المثال.. فإن الثقافة الصينية تقوم على أسس عائلية.. والأنشطة الاقتصادية والتجارية تشمل العائلة بأسرها.. وهذه الحقيقة لها آثار كثيرة، فهى تعنى أن الأنشطة الاقتصادية الصينية لا تميل نحو التوسع والانتشار الكبير.. ربما لأنها لا تسعى للاستعانة بمديرين من خارج العائلة. وهذا يعنى أيضًا صعوبة بناء أسماء لعلامات تجارية كبيرة وشهيرة، لأنه لا تتم الاستعانة بمنظمات تسويق ضخمة. ويرى فوكوياما أن المكونات الثقافية الأعمق تشمل: اللغة.. والدين.. والعرق.. وهذه عناصر مهمة فى أى كيان محلى. وهناك اهتمام كبير

بما يسميه فوكوياما (شبكات الثقة). فهذه الشبكات تختلف من مكان إلى آخر فى العالم. وحتى نفهم طبيعة الأنشطة العملية والاقتصادية فى أية منطقة أو دولة.. يجب علينا فهم شبكات الثقة فيها.. وبمجرد فهم تلك الشبكات وإقامة علاقات الثقة سوف ينطلق العمل والنشاط الاقتصادى.. وتتواصل العلاقات.

التمزق العظيم !

وقد تناول فوكوياما قضايا وموضوعات متنوعة وواسعة.. خلال مقالاته وكتبه وأبحاثه.. مثل عملية (الدمقرطة) أو التحويل الديمقراطى.. والاقتصاد السياسى الدولى. وفى إنتاجه الأخير.. ركز على دور الثقافة ورأس المال الاجتماعى فى الحياة الاقتصادية. وفى الماضى.. تناول فوكوياما السياسة الخارجية السوفيتية فى العالم الثالث.

وفى كتابه المهم (التمزق العظيم) يحاول الرد على منتقدى كتابه المثير (نهاية التاريخ). يقول فوكوياما: «يرى البعض أن المؤسسات السياسية الغربية قد تبدو منتصرة ومتفوقة. ولكن ألا ترى أن نظامنا الأخلاقى ينهار أمام أعيننا.. ومن حولنا؟ إذ إن الدول المتقدمة تشهد معدلات عالية جدًا من الجرائم.. كما انهارت وتمزقت العائلة الغربية.. وانتشرت الأنانية على نطاق واسع.. وافتقد المجتمع الغربى أى شكل من أشكال

التضامن الاجتماعى. بمعنى أن مجتمعاتنا (المجتمعات الغربية) تبدو منتصرة ظاهريا فقط» وكتاب (التمزق العظيم يتناول هذه القضايا من ثلاث زوايا.. الأولى: ارتفاع معدلات الجرائم. والجميع يتفق على أن الجريمة أمر سيئ. كما أن نموها يمثل انهيارًا للنظام الاجتماعى. ومن المثير عندما تتابع أحوال الدول المتقدمة.. خاصة أوروبا وأمريكا الشمالية.. دون الدول الأسيوية.. سوف تكتشف أن كل دولة تشهد زيادة سريعة فى نمو معدلات الجريمة.. وبدأت تلك الزيادة أو الطفرة الإجرامية فى ذات الوقت تقريبا فى المجتمعات الغربية.. فى أعوام ٦٢ - ٦٤ — ١٩٦٥م.. وانطلقت بسرعة فائقة ومنتظمة خلال السبعينات والثمانينات. أما الزاوية الثانية للتمزق الغربى فهى ما حدث للعائلة التى بدأ انهيار جوهرها منذ الخمسينات. والولايات المتحدة ليست استثناءً فى ذلك. فثلث المواليد الأمريكيين ولدوا خارج مؤسسة الزواج منذ التسعينات.. وبلغت تلك النسبة الثلثين فى السويد. بل إن معدلات الطلاق والانفصال فى تصاعد مستمر فى السويد والولايات المتحدة أيضا. كما أن عدد الأطفال الذين ترعاهم الأم وحدها أو يعيشون دون رعاية الأبوين معًا فى تصاعد مستمر. والمثير والمهم فى ذلك ليس مستوى التمزق العائلى.. بل إن هذا الاتجاه يحدث فى عدة دول فى آن واحد.

أما الزاوية الثالثة للتمزق الغربى - كما يرصده فوكوياما - فهى (الثقة).. أو مؤسسات الثقة.. الثقة فى المواطنين. وقد جرت استطلاعات فى عدة دول غربية.. وتناولت ذات الأسئلة: هل تثق فى قيام حكومتك بواجبها بشكل صحيح؟.. وهل تثق فى مواطنى بلدك؟ هل تثق فى مؤسساتها المختلفة: فى اتحادات العمال؟ فى الهيئات؟ فى الأطباء؟ فى النظام القضائى؟ وجاءت الردود مثيرة.. ومتشابهة أيضا.. حيث إن مستوى الثقة قد تراجع فى تلك الدول المتقدمة بشكل دراماتيكى ومتزامن تقريبًا، ففى الولايات المتحدة يثق ١,٧٪ فقط فى الحكومة الفيدرالية.. بعد أن كانت ٦٥٪ خلال التسعينات.

❑❑❑

بقى أن نعرف من هو فوكوياما؟. لقد هاجر جده إلى الولايات المتحدة عام ١٩٠٥ هربًا من المشاركة فى الحرب اليابانية - الروسية آنذاك. وقد ولدت أمه فى اليابان وجاءت إلى الولايات المتحدة بعد تلك الحرب. كما تطوع أحد أخواله فى الجيش الأمريكى. وقد ولد فرنسيس فوكوياما فى ٢٧ أكتوبر عام ١٩٥٢ فى شيكاغو.. وترعرع فى نيويورك.. وتدرب والده فى إحدى الإبراشيات، وتخصص فى الدراسات الدينية. وحصل على البكالوريوس فى الدراسات الكلاسيكية من جامعة كورنيل..

وحصل على الدكتوراه فى العلوم السياسية من جامعة هارفارد. وهو عضو فى مؤسسة رانـد. وكان عضوًا بهيئة التخطيط السياسى بوزارة الدفاع الأمريكية خلال فترة الثمانينات.. وفى عامى ٨١، ١٩٨٢م شارك فى الوفد الأمريكى لمباحثات السلام المصرية - الإسرائيلية حول الحكم الذاتى الفلسطينى.

وبقراءة سريعة لتطوره الفكرى يتضح أن فوكوياما يحاول إثارة ومضات ثقافية.. خاطئة فى بعض الأحيان.. ومعادية للحضارات الأخرى.. خاصة الإسلام فى أحيان أخرى. وعلى رغم اعترافه بخطئه عن كتابه (نهاية التاريخ).. فإنه يسلط الضوء على (التمزق العظيم) الذى تشهده الحضارة الغربية.. وهو اعتراف أقرب إلى الإقرار بقرب (نهاية الحضارة الغربية).. وهذه ليست نهاية التاريخ!

❑❑❑